# أيُّها البحر[١][٢] !

إذا احتدم[٣] الصَّيف ، جعلتَ أنت ـ أيُّها البحرُ ـ للزَّمن فصلاً جديداً يسمَّى : « الرَّبيعَ المائيَّ » .

وتنتقلُ إلى أيامِك أرواح[٤] الحدائق ، فتنبتُ في الزَّمن بعضُ السَّاعاتِ الشَّهيَّةِ ، كأنَّها الثَّمرُ الحُلوُ النَّاضج على شجره .

ويوحي لونُك الأَزرقُ إلى النُّفوس ما كان يوحيه لونُ الرَّبيع الأخضر ، إلا : أنَّه أرقُّ ، وألطف .

ويرى الشُّعراء في ساحلك مثلَ ما يرون في أرض الرَّبيع ، أنوثةً ظاهرةً ، غير أنَّها تلدُ المعانيَ ، لا النَّبات .

ويُحسُّ العشَّاق عندك ما يحسُّونه في الرَّبيع : أنَّ الهواءَ يتأوَّه . . .

* * *

في الرَّبيع ، يتحرَّك في الدَّم البشريِّ سرُّ هذه الأرض ، وعند « الرَّبيع المائيِّ » يتحرَّك في الدَّم سرُّ هذه السُّحُب .

نوعان من الخمر في هواء الرَّبيع ، وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطَّرب .

وبالرَّبيعيْن الأخضر ، والأزرق ينفتح بابان للعالم السِّحريِّ العجيب ، عالمِ الجمال الأرضيِّ ؛ الَّذي تدخله الرُّوح الإنسانيَّة ، كما يدخل القلبُ المحبُّ في شعاع ابتسامةٍ ، ومعناها .

* * *

---

(١) كتبها في مصيفه بالإسكندرية . (س) .
(٢) كتبنا في (أوراق الورد) رسالةً عن البحر والحب ، فيها أوصاف للبحر كثيرة . (ع) .
(٣) « احتدم » : اشتدَّ .
(٤) « أرواح » : جمع ريح ، وهي : الرائحة .

في « الرَّبيع المائيِّ » ، يجلس المرءُ ، وكأنَّه جالسٌ في سحابةٍ ، لا في الأرض ، ويشعرُ كأنَّه لابسٌ ثياباً من الظلِّ ، لا من القماش .

ويجد الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواء التُّراب .

وتخِفُّ على نفسه الأشياء ، كأنَّ بعضَ المعاني الأرضيَّةِ انتُزعتْ من المادَّة ؛ وهنا يدركُ الحقيقة : أنَّ السُّرورَ إنْ هو إلا تنبُّه معاني الطَّبيعة في القلب .

* * *

وللشَّمس هنا معنًى جديدٌ ليس لها هناك في « دنيا الرِّزق » .

تشرق الشمس هنا على الجسم ، أمَّا هناك ؛ فكأنَّما تطلع ، وتَغرب على الأعمال ؛ الَّتي يعمل الجسم فيها .

تطلع هناك على ديوان الموظَّف ، لا الموظف ، وعلى حانوت التَّاجر ، لا التَّاجر ، وعلى مصنع العامل ، لا العامل ، ومدرسةِ التِّلميذ ، ودارِ المرأة .

تطلع الشَّمسُ هناك بالنُّور ، ولكنَّ النَّاسَ ـ وا أسفاه ـ يكونون في ساعاتهم المظلمة . . .

الشَّمسُ هنا جديدةٌ ، تُثبت : أنَّ الجديدَ في الطبيعة هو الجديد في كيفية شعور النَّفس به .

* * *

والقمرُ زاهٍ رَفَّافٌ من الحُسْن ؛ كأنَّه اغتسل ، وخرج من البحر .

أَو كأنَّه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طَلع في أوائل اللَّيل ؛ فحصرَته السَّماء في مكانه ؛ ليستمرَّ الليل .

فجرٌ لا يوقِظ العيونَ من أحلامها ، ولكنَّه يوقظُ الأرواحَ لأحلامها ؛ ويُلقي من سحره على النُّجوم ، فلا تظهر حوله إلا مُسْتَبْهِمَةً كأنَّها أحلامٌ معلَّقةٌ .

للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النَّفس الشَّاعرة ، كطريقة الوجه المعشوقِ حين تقبِّله أوَّل مرَّةٍ .

* * *

و« للرَّبيع المائيِّ » طيورُه المغرِّدة ، وفراشُه المتنقِّل .

أمَّا الطيورُ ؛ فنساءٌ يتضاحَكْنَ ، وأمَّا الفراشُ ؛ فأطفالٌ يتواثبون .

نساءٌ إذا انغَمَسْنَ في البحر ، خُيِّل إليَّ : أنَّ الأمواجَ تتشاحنُ ، وتتخاصَم على بعضهنَّ . . .

رأيت منهنَّ زهراء فاتنةً قد جلست على الرَّملِ جلْسة حواءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلهي ! قد انتقل معنى الغرَق إلى الشَّاطئ . . .

إنَّ الغريقَ مَنْ غَرِقَ في مَوجة الرَّملِ هذه . . !

❋ ❋ ❋

والأطفالُ يلعبون ، ويصرخُون ويضِجُّون ، كأنَّما اتَّسعت لهم الحياة ، والدُّنيا . وخُيِّل إليَّ أنَّهم أقلقوا البحر ، كما يُقلقون الدَّار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التُّراب . . . ورأيت طفلاً منهم قد جاء فَوَكزَ البحرَ بِرِجْله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بني آدم !

أعَلى الله أن يَعْبأ بالمغرور منكمْ ، إذا كفر به ؟ أعَليَّ أن أعبأ[1] بهذا الطِّفل كيلا يقولَ : إنَّه ركلَني برجله !

❋ ❋ ❋

أيُّها البحر ! قد ملأتْكَ قوَّةُ الله ؛ لتُثبتَ فراغَ الأرض لأهل الأرض .

ليس فيك ممالكُ ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسان المغرور .

وتجيش بالنَّاس وبالسُّفُنِ العظيمة ، كأنَّك تحمل مِنْ هؤلاء ، وهؤلاء قشَّاً تُرمَى به .

والاختراع الإنسانيُّ مهما عَظُم لا يُغني الإنسانَ فيك عن إيمانه .

وأنت تملأ ثلاثةَ أرباع الأرض بالعظَمة والهوْل[2] ، ردَّاً على عظمة الإنسان ، وهوله في الرُّبع الباقي ؛ ما أعظمَ الإنسان ، وأصغره !

❋ ❋ ❋

---

(١) « أعبأ » : أحتفل ، وأهتم .

(٢) « الهول » : الفزع .

يَنزلُ الناس في مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلفَ ظاهرٌ عن ظاهرٍ .

ويركبون ظهرَك في السفن فيحِنُّ بعضهم إلى بعضٍ حتى لا يختلف باطنٌ عن باطنٍ .

تشعرهم جميعاً أنَّهم خرجوا من الكرَة الأرضيَّة ، ومن أحكامِها الباطلة .

وتُفقرهم إلى الحبِّ ، والصَّداقة فقراً يُريهم النُّجومَ نفسها كأنَّها أصدقاء ؛ إذ عرفوها في الأرض .

يا سحرَ الخوف ! أنت أنت في اللُّجَّة[١] كما أنت أنت في جهنَّم !

* * *

وإذا ركبك الملْحِدُ أيُّها البحر ، فرجَفْتَ من تحته ، وهَدَرتَ عليه ، وثُرْتَ به ، وأريتَهُ رأيَ العين كأنَّه بين سماءين، ستنطبقُ إحداهما على الأخرى، فتُقْفَلان عليه ، تركتَه يتطأطأ، ويتواضع ، كأنَّك تهزُّه ، وتهزُّ أفكاره معاً ، وتُدَحْرِجُه وتدحرجُها.

وأطَرْتَ كلَّ ما في عقله ، فيلجأ إلى الله بعقل طفلٍ .

وكشفتَ له عن الحقيقة : أنَّ نسيانَ الله ليس عَملَ العقل ؛ ولكنَّه عملُ الغفلة ، والأمن ، وطول السَّلامة .

* * *

ألا ما أشبه الإنسانَ في الحياة بالسَّفينة في أمواج البحر هذا !

إنِ ارتفعت السَّفينةُ ، أو انخفضتْ ، أو مادت[٢] ؛ فليس ذلك منها وحدَها ، بل ممَّا حولها .

ولن تستطيع هذه السَّفينةُ ، أن تملكَ من قانون ما حولها شيئاً ، ولكنَّ قانونَها هي الثَّباتُ ، والتَّوازنُ ، والاهتداءُ إلى قصدها ، ونجاتُها في قانونها .

فلا يَغْتَبِنَّ الإنسانُ على الدنيا ، وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسَه .

* * *

---

(١) « اللجة » : الماء الكثير تصطخب أمواجُه .

(٢) « مادت » : تمايلت .